العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(١١٦)

الحتمية في علامات الظهور

مدخل الى تحديد المفهوم العام

تأليف
الشيخ علي الفياض

شعبة البحوث والدراسات (٥)

الحَتمِيَة

في علامات الظهور

مدخل الى تحديد المفهوم العام



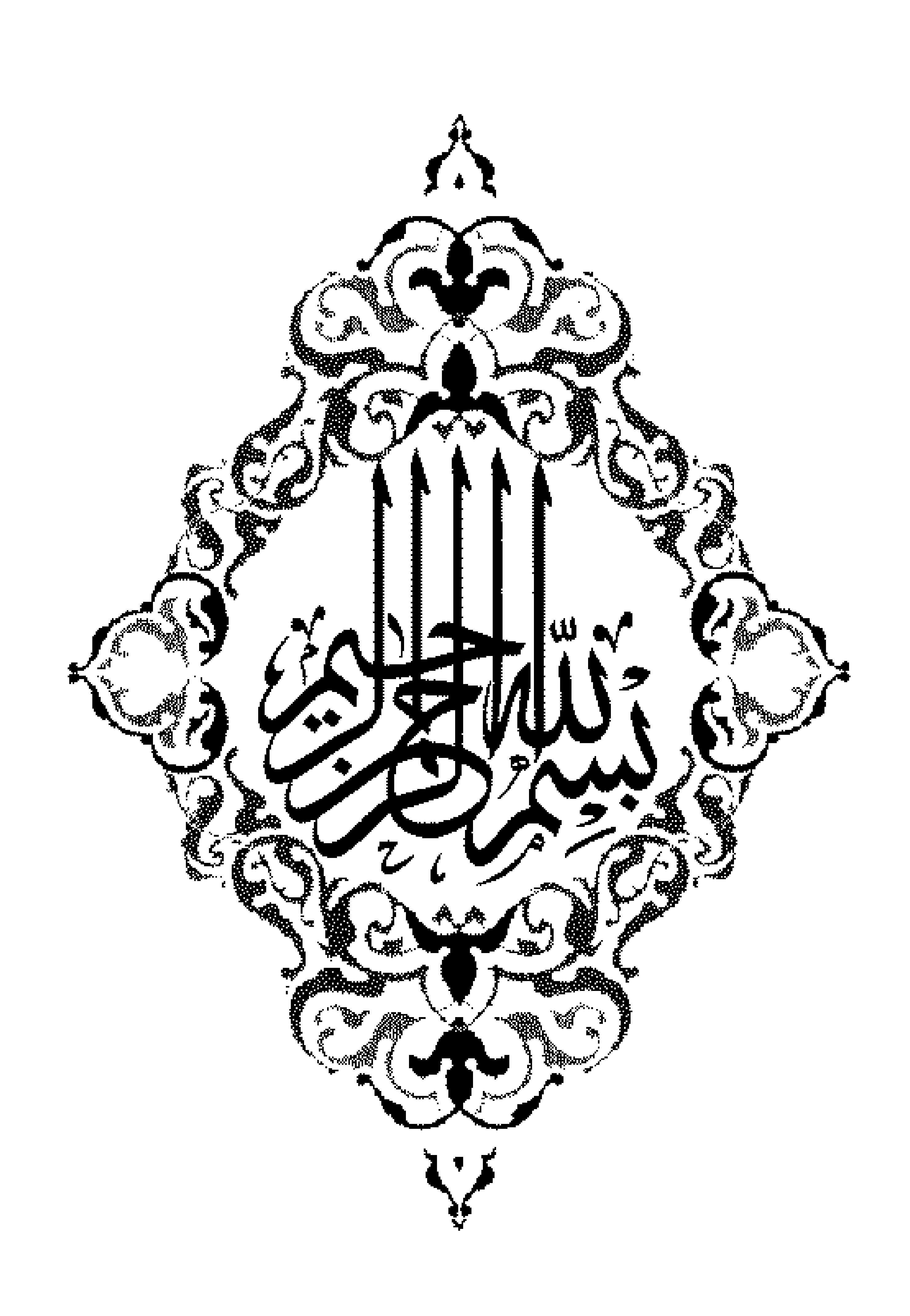
الحَتمِيَة في عَلامَات الظُهُور

مدخل الى تحديد المفهوم العام

تأليف
الشيخ علي الفياض

شعبة البحوث والدراسات (٥)

الناشــــر:..العتبــــة العلويــــة المقدســة/قســم الشــؤون الفكريــة والثقافيــة/شــعبة البحــوث والدراســات
تـأليف:..الشيخ علي الفياض
التنضيد:..زكريا فاضل الربيعي
الغلاف والإخراج الفني:......................أحمد عبد الإله البياتي
عـدد النسـخ:..١٠٠٠نسخة
سنة الطبع:..١٤٣٦هـ/٢٠١٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة قسم الشؤون الفكرية والثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين حمداً يوافي نعمه ويُكافئ مزيده ويمتري العظيم من فضله ونداه وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين مصابيح الدجى ومنار الهدى لا سيما بقية الله في الأرضين مولانا قطب دائرة الإمكان صاحب العصر والزمان أرواحنا لتراب مقدمه الفداء.

وبعد..

ففي الوقت الذي يزفّ فيه قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العلوية المقدّسة هذا الإصدار بحلته هذه إلى القرّاء الكرام فإنّنا نمدّ كف الضراعة إلى المولى تعالى سائلين إياه أن يسدد يراع زملائنا في شعبة البحوث والدراسات لتقديم كلّ ما هو رائع ونافع لخدمة شريعة سيد المرسلين ﷺ فإنّه ما إن انقشعت غيوم الطغيان

والدكتاتورية البغيضة عن سماء عراق أهل البيت ﷺ حتى نهدت العتبات المقدّسة بقياداتها وإداراتها الجديدة بمهمة النهوض بالمستوى الفكري والثقافي لأبناء الإسلام العظيم مضطلعة بحمل هذا العبء عن طريق نشر وتحقيق المؤلفات التي تصبّ في خدمة الإنسان والإنسانية بكل بعد من أبعادها.

وقد حرص قسم الشؤون الفكرية والثقافية على نشر كلّ ما يخصّ مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ من خلال إصداراته المختلفة والمتنوعة خدمة لطلاب العلم والمعرفة، ونشراً للثقافة الإسلامية الأصيلة.

ومن الله نستمدّ العون وهو حسبنا ونعم الوكيل متوسلين بباب مدينة علم رسول الله ﷺ أن تكون هذه الجهود في ميزان حسناتنا، والله من وراء القصد.

رئاسة قسم الشؤون الفكرية والثقافية
محرم الحرام/١٤٣٦هـ
النجف الأشرف

مقدمة شعبة البحوث و الدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

وبعد..

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ سورة التوبة ، الآية (١٠٥).

لا يمكن إنكار ما للمعرفة من دور مركزي في رقي وتقدم الأمم. فكان الكتاب، والكتابة، والقراءة، أدواتٌ معرفية ساهمت وتساهم في رفد عجلة التطور الفكري والثقافي بكل ما هو جديد ومفيد علمياً ومعرفياً.

إنّ هذا التطور لابد له من أوعية وأدوات تساهم في

جمعه وتهذيبه ومن ثم نشره، فكانت نوافذه في الإطلال على العالم الخارجي متنوعة ومتعددة بتنوع وتعدد المتلقين، وطبيعة ونوعية الملقين.

وما ((شعبة البحوث والدراسات)) في العتبة العلوية المقدسة إلا إحدى هذه النوافذ المعدة لتبني القضايا الفكرية والثقافية بشكل عام، وقضايا التراث الديني بشكلٍ خاص.

فمنذ انطلاق هذه الشعبة بمهامها التي أنيطت بها أخذت على عاتقها المساهمة في مواكبة النتاج الثقافي وذلك من خلال وحداتها: ((وحدة الدراسات القرآنية، ووحدة الدراسات العقائدية، ووحدة الدراسات الحديثية، ووحدة الدراسات المهدوية، ووحدة دراسات نهج البلاغة)).

لقد كان للأخوة العاملين في هذه الشعبة الإسهام ـ ومن خلال ما بذلوه من جهود ـ في ظهور كتابات مفيدة، تخدم الحركة العلمية، وتساهم في زيادة رصيد العتبة العلوية المقدسة فيما تقدمه من خدمات للحركة الفكرية، ولطلاب العلم والمعرفة. فالشكر واصلٌ إليهم، داعين لهم بالتوفيق والسداد.

(١١)

إنّ هذا الكتاب، وغيره من الكتابات الأخرى ما هو إلا تأليف وضع ضمن خطة أعدتها رئاسة قسم الشؤون الفكرية متمثلة بالشيخ علي الشكري، مع رئاسة شعبة البحوث والدراسات، وضمن خطة ودراسة طالت أيام، بل أكثر، فكان باكورة هذه النتاجات ما نضعه بين يدي القارئ الكريم من نتاج أولي تجاوز الخمسة عشر مؤلفاً، هذا ضمن الخطة الأولية التي وضعت لأواخر سنة (٢٠١٤ ميلادي)، وسيتبع ذلك ضعف هذه المطبوعات كخطة ـ أولية ـ لبدايات العام (٢٠١٥ ميلادي) المساوق ـ أيضاً ـ لبدايات العام الهجري (١٤٣٦هـ) والذي يتوافق مع الذكرى القرنية الرابعة عشر لاتخاذ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الكوفة عاصمة للحكومة الإسلامية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الشيخ ليث العتابي
رئيس شعبة البحوث والدراسات
قسم الشؤون الفكرية و الثقافية
العتبة العلوية المقدسة
محرم الحرام ـ ١٤٣٦هـ

المقدمة

لا يخفى على القارئ الكريم أهمية معرفة المصطلحات والمفاهيم التي تستخدم في العلوم كمقدمة لمعرفة وفهم هذه العلوم وخصوصاً إذا كان الاستعمال في أكثر من علم مثل العقائد والفلسفة.

إنّ مصطلح الحتمية Determinism من المصطلحات المهمة التي كثر استعمالها وتداولها في مقولات مختلف العلوم وهذا المفهوم حديث نسبياً ولا يسع القارئ ولا الباحث أن يترك التعرف عليه.

وبحثنا هذا كان في المفهوم تاركين البحث في التطبيقات إلى

دراسات أُخر فهو يعطينا فكرة أولية الحتمية.

وفي بداية بحثنا هذا البدء تناولنا المادة اللغوية التي يرجع إليها مصطلح الحتمية وهي مادة (حتم) وتم استعراض المهم من أقوال اللغويين في هذه المسألة.

ثم كانت محاولة لفهم هذه المفردة في القرآن الكريم باعتبارها وردت فيه في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[1] فقد تم ذكر آراء بعض المفسرين من الفريقين حول هذه المسألة.

وأما مفهوم الحتم والحتمية في الروايات فقد اكتفينا بذكر ثلاثة شواهد روائية أوردناها من باب المثال.

ثم بحثنا بشكل موجز مسألة البداء لارتباطها المباشر بمسألة المحتوم ولورود رواية مباركة في هذا الشأن عن الإمام الجواد عليه السلام تصرح بوقوع البداء في المحتوم[2].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

(٢) ذكرنا الرواية في هامش صفحة: ٤٧.

وتم استعراض آراء بعض علماء الطائفة في البداء محاولين معرفة آرائهم في جريان البداء أو عدم جريانه في الأمور الحتمية.

وأمّا في البحث الفلسفي فقد اكتفينا بتسليط الضوء على المفهوم الفلسفي لكلمة الحتمية وشيء من تقسيماتها وابتعدنا عن ذكر البراهين والمناقشات العلمية للنظرية الفلسفية باعتبار أن بحثنا في المفهوم دون الاستدلال والتطبيقات.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بحثنا هذا أردنا منه أن يكون كمقدمة لدراسة العلامات الحتمية لظهور الإمام المهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه ـ علماً أنّنا لم ندخل في دراسة نفس العلامات الموصوف بالحتمية. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المؤلف

١٤٣٦هـ

مفهوم الحتمية

يظهر من استخدام كلمة الحتمية والحتم والمحتوم أنّ هناك معان واسعة لهذه الكلمة فلابدّ من البحث في تحديد المفهوم العام للكلمة ويكون ذلك من خلال النقاط التالية:

الحتمية في اللغة:

إذا رجعنا إلى كتب اللغة وجدنا أنّ كلمة الحتمية مأخوذة من الفعل حتم (بفتح الميم) والمصدر هو (حتْم) بتسكين الميم واسم الفاعل هو حاتم كما هو واضح.

ومادة حتم تستخدم في اللغة في عدة معاني متقاربة وهي: القضاء والإلزام وإحكام الأمر وجميع هذه المعاني الثلاثة تدل على

الوجوب واللزوم والإتقان فيقصدون من حتم الأمر أي قضاه أو أحكمه أو أوجبه ولنأخذ بنقل كلمات اللغويين في هذا المجال لكي يكون الأمر جلياً.

١ـ قال في كتاب العين[1]: (الحتم: إيجاب القضاء والحاتم القاضي. قال أمية:

حناني ربنا وله عنونا بكفيه المنايا والحتوم

وقوله: إيجاب القضاء يدل على المعنى الأول والثالث لكلمة حتم واستشهد بالبيت الشعري الذي يعبر عن الموت بأنّه حتم أي أنّه شيء لابدّ منه.

٢ـ قال في تاج العروس: (الحتم: الخالص... والحتم: القضاء... وقيل: هو إحكام الأمر... وقد حتمه يحتمه حتماً: قضاه وأوجبه... وتحتم: جعل الشيء حتما أي: لازماً..)[2] وهو قد أضاف معنى آخر للحتم بمعنى الخالص فيقال الأخ الحتم أي الخالص. فتصير المعاني أربعة: القضاء والإلزام وإحكام الأمر والخلوص.

---

(١) كتاب العين ٣: ١٩٥.

(٢) تاج العروس/للزبيدي: ١٦ / ١٢٦ - ١٢٧.

٣ـ قال في الصحاح: (الحتم: إحكام الأمر والحتم: القضاء وحتمت عليه الشيء: أوجبته)[١] وهو قد أشار إلى المعاني الثلاثة المتقدمة.

٤ – مجمع البحرين: (الحتم: الواجب المعزوم عليه... وحتم عليه الأمر حتما: أوجبه جزما وحتم الله الأمر: أوجبه والحتم: إحكام الأمر والحتم: إيجاب القضاء... وتحتم وجب وجوباً لا يمكن إسقاطه ومنه الأمر المحتوم)[٢].

وأشار في نهاية عبارته إلى أنّ ما حتم لا يمكن أن يتبدل أو يتغير حين قال: (لا يمكن إسقاطه) فهو أمر محتوم.

٥ـ قال في القاموس المحيط: (الحتم: الخالص... والقضاء وإيجابه واحكام الأمر ج: حتوم وقد حتمه بحثه... وتحتم: جعل الشيء حتماً)[٣].

---

(١) الصحاح ٥ : ١٨٩٢.

(٢) مجمع البحرين ٦ : ٣٢.

(٣) القاموس المحيط ٤ : ٩٣.

(٢٠)

٦ـ قال في المعجم الوسيط: (حتم بكذا – حتما قضىٰ وحكم الأمر: احكمه وحتم عليه الأمر أوجبه فهو حتم انحتم الأمر وجب وجوباً لا يمكن إسقاطه تحتم الأمر انحتم الحتم: القضاء... والحتم الخالص النقي)[1].

٧ـ وقال صاحب المنجد: (حتم حتماً الشيء أحكمه حتم حتماً الشيء عليه: أوجبه عليه وـ بالشيء: قضىٰ تحتم الشيء علىٰ نفسه: جعله حتماً أي لازماً وانحتم الأمر وجب وجوباً لا يمكن إسقاطه...)[2].

٨ـ وقال في معجم الطلاب: (حتم يحتم حتماً: أحكم / أوجب / قضىٰ)[3].

٩ـ وقال ابن الأثير: (الحتم: اللزم الواجب الذي لابد من فعله)[4].

---

(١) المعجم الوسيط ١ : ١٥٥.

(٢) المنجد، مادة: (حتم).

(٣) معجم الطلاب، مادة: (حتم): ١١٧.

(٤) النهاية ١ : ٣٣٨.

١٠ـ وقال الراغب في مفرداته: (الحتم القضاء المقدر)[1].

١١ـ قال صاحب الفروق اللغوية: (الفرق بين الحتم والفرض: أن الحتم إمضاء الحكم على التوكيد والاحكام، يقال: حتم الله كذا وكذا وقضاه قضاء حتماً أي حكم به حكماً مؤكداً وليس هو من الفرض والإيجاب في شيء لأنّ الفرض والإيجاب يكونان في والأوامر والحتم يكون في الأحكام والأقضية)[2].

ويبدو من كلامه أنه تنبه إلى أمر مهم وهو عدم استخدام مادة حتم في الأوامر ومنها الأوامر الإلهية وإنما تستخدم فقط في القضاء وإذا كان الأمر كذلك سوف تعالج مشكلة استخدام كلمة الحتم والحتمية للدلالة على الجبر وسلب الإرادة فإن مثل هذا الاستخدام يكون دخيلاً على المعنى اللغوي حيث تم استعراض كلام اللغويين بشيء من التفصيل ولم تكن هناك أشارة ـ ولو من بعيد ـ إلى استخدام مادة حتم لا على مستوى الفعل ولا على مستوى المصدر

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٢١٨.

(٢) الفروق اللغوية: ١٧٥.

(٢٢)

في معنى الجبر وسلب الإرادة نعم يفهم من النصوص المتقدمة هناك درجة عالية من الوجوب أو الإلزام تصل إلى حد التأكيد والكلمة بمعنى اللزوم لم تستخدم في عالم التكليف و عالم الأوامر الإلهية وإنما استخدمت في معنى القضاء الذي منه القضاء الإلهي والقضية الأولى تبحث في الجبر والتفويض وتدخل الثانية في مسألة القضاء والقدر.

الحتمية في القرآن الكريم

إذا تتبعنا مادة (حتم) بألفاظها المختلفة في القرآن الكريم، نجد أنّها وردت في موضع واحد في سورة مريم وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[1] لذا سوف يدور بحثنا القرآني في مفهوم المفردة حول الآية المباركة مستعرضين بعض أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾:

١ ـ تفسير الميزان: اكتفى صاحب الميزان في تفسير الحتم بنقل كلام الشيخ الطبرسي في المعنى اللغوي وهو: (والحتم والجزم والقطع بمعنى واحد أي هذا الورود أو الحكم كان واجباً عليه تعالى مقضياً في حقه وإنّما قضى ذلك نفسه على نفسه إذ لا حاكم يحكم عليه)[2].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

(٢) تفسير الميزان/ للسيد الطباطبائي ١٤ : ٩٢.

٢ـ تفسير الأمثل: ذكر صاحب هذا التفسير اتجاهين حول تفسير الورود في الآية المباركة المتقدمة الاتجاه الأول بمعنى الاقتراب من النار والإشراف عليها والمعنى أنّ الجميع يأتي إلى جهنم للحساب أو لمشاهدة مصير المسيئين النهائي.

وأمّا الاتجاه الثاني فهو أن الورود بمعنى الدخول في النار وقال بأن ظاهر الآية ينسجم مع الاتجاه الثاني وأما عن فقرة ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ فقال: فقد علل دخول الناس إلى جهنّم بأنّه حتمي ولم يتطرق إلى بيان تفصيلي لكلمة الحتم ولعل ذلك لوضوح أنّها هنا استخدمت في معناها اللغوي وهو اللزوم والاحكام وعدم الانفكاك)[1].

٣ـ تفسير الرازي: قال في معنى فقرة ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾: (أي واجباً مفروغاً منه بحكم الوعيد)[2].

وقال في موضع آخر (فالحتم مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى المحتوم بالحتم كقولهم: خلق الله وضرب الأسير)[3] وفي

---

(١) راجع تفسير الأمثل ٩ : ٤٨٩- ٤٩٠.

(٢) تفسير الرازي: ٢١ : ٢٤٣.

(٣) المصدر نفسه ٢١ : ٢٤٤.

فقرته الثانية تنبه إلىٰ معنىٰ مهم وهو أنّ المحتوم بمعنىٰ حتم وسوف يأتي استخدام لفظ المحتوم كثيراً في الروايات.

٤ـ تفسير ابن كثير: (وقال السدي عن مرة عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ قال قسماً واجباً: وقال مجاهد حتماً قال قضاء)[1].

٥ـ وذكر صاحب تفسير روض الجنان وروح الجنان بأنّ أصل كلمة حتم هو القطع يقال: حتم وحذم وحزم بمعنىٰ[2].

٦ـ وقال صاحب كنز الدقائق وبحر الغرائب: (كان ورودهم واجباً أوجبه الله علىٰ نفسه وقضىٰ بأن وعد به وعداً لا يمكن خلفه وقيل: أقسم عليه)[3].

وواضح أنّ المفسر لم يرتضِ القول بأنّ الله أقسم بأن يدخلهم النار لعدم ظهور ذلك من الآية المباركة وأنّه نقل بعض الأقوال ولعلهم قالوا بالقسم لوجود إلزام ووجوب قوي من لفظ الحتم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير ٣ : ١٤١.

(٢) روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن (فارسي) ١٣ : ١١١.

(٣) تفسير كنز الدقائق ٨ : ٢٥٩.

٧ـ وفي تفسير مقاتل: (.. قضاءً واجباً قد قضاه في اللوح المحفوظ أنّه كائن لابد..)[1].

٨ـ وفي فتح القدير: (.. أي كان ورودهم المذكور أمراً محتوماً قد قضىٰ سبحانه أنّه لابد من وقوعه لا محالة قد استدلت المعتزلة بهذه الآية علىٰ أنّ العقاب واجب علىٰ الله وعند الأشاعرة أنّ هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف إليه)[2]، وهو يشير إلىٰ أنّ الآية المباركة وبسبب مفردة الحتم التي وردت فيها _ وهي المفردة الوحيدة في القرآن الكريم كما أشرنا _ حصل نزاع في مسألة كلامية وهي هل أنّ الوعيد واجب علىٰ الله تعالىٰ أي هل يجب أن يفي به أو لا وتحقيق ذلك يكون في علم الكلام.

وبعد هذا الاستعراض السريع للمفهوم التفسيري لمادة حتم نستنتج ما يلي:

١ـ أن المفسرين يكاد أن يكون عندهم اتفاق بأن كلمة (حتماً) تشير إلىٰ القضاء والإلزام وهو نفس المعنىٰ الذي ذكره أهل اللغة لهذه المفردة.

---

(١) تفسير مقاتل ٢ : ٣١٩.

(٢) فتح القدير ٣ : ٣٤٤ - ٣٤٥.

٢ـ لا يوجد تركيز للمفسرين حول معنى إحكام الأمر الذي ذكره اللغويون للمفردة وان كان معنى القضاء والإلـزام مسـتبطناً فيه.

٣ـ لم نجد في هذا الاستعراض من فسر الحتم بمعنى الخاص كما ذكر ذلك بعض أهل اللغة مثل صاحب لسان الميزان وصاحب المعجم الوسيط وقد تقدم ذلك.

٤ـ ذكر بعض المفسرين أنّ حتم فيها دلالة على القسم كما تقدم من ابن كثير وهذا خلاف الظاهر القرآني وأيضاً لا يستفاد من كلمات أهل اللغة.

الحتمية في الروايات

وردت مفردة حتم ومحتوم كثيراً في روايات أهل البيت عليهم السلام في مسألة القضاء الإلهي والقدر والمشيئة والإرادة وبقية صفات الله تعالى وأن لفظ المحتوم ارتبط كثيراً في الروايات ببحث البداء[1] وبحث اختيار الإنسان وإرادته ولذا فإنّ البحث لا يخلو من التعقيد لتشعب الموضوعات التي يرتبط بها هذا المفهوم أي مفهوم الحتم والحتمية وفي بداية هذا البحث لابد من ملاحظة ماذا أريد من مفهوم الحتم والمحتوم في الروايات.

معنى المحتوم:

إذا تأملنا في روايات المحتوم سيتضح لنا أنّ الظاهر منه المعنى

---

(١) سيرد لاحقاً بيان معنى البداء لغة واصطلاحاً.

الأول الذي ذكره اللغويون فالحتم بمعنى القضاء والمحتوم بمعنى المقضي وهذا المعنى للمحتوم يكاد يفهم من الروايات والكلمة لم تستخدم في غير معناها اللغوي ولنذكر بعض الشواهد على ذلك:

١ـ ما ذكره الشيخ الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عند قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[1] قال: ((نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر قال الله عز وجل: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[2] قال: يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل أو رزق فما قدر في تلك السنة وقضي فهو المحتوم ولله عز وجل فيه المشيئة، قال: قلت: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[3] أي شيء عني بذلك؟ فقال:

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٤.

(٣) سورة القدر، الآية: ٣.

العمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وأنواع الخير خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ولولا ما يضاعف الله تبارك وتعالى للمؤمنين ما بلغوا ولكن الله يضاعف لهم الحسنات (بحبنا))[١] فالأمر الإلهي بعد أن يمر بمرحلة القدر ثم القضاء يكون محتوماً كما هو واضح.

٢ـ ما رواه القمي في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾[٢] فإنه حدثني أبي عن النضر بن سويد عن الحلبي عن عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((الأجل المقضي هو المحتوم الذي قضاه الله وحتمه والمسمى هو الذي فيه البداء يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء والمحتوم ليس فيه تقديم ولا تأخير))[٣] فإنّ الإمام عبر عن الأجل المقضي بأنّه المحتوم أي هو الأجل المحتوم فما كان مقضياً كان محتوماً.

---

(١) الكافي/ ٤ / ١٥٧ – ١٥٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢.

(٣) تفسير القمي: ١ / ١٩٤.

(٣٢)

٣ـ في الوافي عن أمير المؤمنين عليه السلام: ((.. فإنّ الله أبرم الأمور وأمضاها على مقاديرها فهي غير متناهية عن مجاريها دون بلوغ غاياتها فيما قدر وقضى من ذلك وقد كان فيما قدر وقضى من أمره المحتوم وقضاياه المبرمة...))[1] فإنّ قوله عليه السلام: ((وقضى من أمره المحتوم)) قد يفهم منه أنّ الأمر المحتوم هو ما كان مقضياً.

---

(١) الوافي: ٢١ / ٣٩٢

الحتمية والبداء

بعد أن استوضحنا معنى مفهوم المحتوم الذي جاء في الروايات يقع البحث في مسألة وقوع أو عدم وقوع البداء في المحتوم ولابد فيها كمقدمة للبحث من بيان معنى البداء لأنّه من المفاهيم التي وقع فيها الخلط والاشتباه وله عدة معان بعضها باطل جزماً وللأسف ينسب هذا المعنى الباطل إلى الفرقة الحقة بغير علم.

معنى البداء لغة:

يطلق البداء في اللغة ويراد منه الظهور وهو من الفعل الثلاثي بدا بمعنى ظهر أي أنّ الأمر لم يكن ظاهراً ثم ظهر فيقال بدا له في الأمر بمعنى ظهر له استصواب شيء غير الأول ويقال:

وفلان ذو بداوة أي لا يزال يبدو ويظهر له رأي جديد[1].

وحسب المعنى اللغوي لا يمكن أن يطلق ذلك على الله تعالى لأنّه يستلزم الجهل في حقه تعالى والبداء بهذا المعنى باطل ومستحيل لأنّه تعالى علمه مطلق ولا يوجد جهل في ساحته لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: ((إن الله لم يبد له من جهل))[2]. وللأسف ينسب هذا القول إلى الإمامية وهم منه براء. ولعل أساس المشكلة هو محاولة أخذ المعنى اللغوي للكلمة وتطبيقه في حق الله تعالى من دون رجوع إلى التأمل في الكتاب الكريم والروايات الشريفة وكلمات العلماء ومن دون رجوع أيضاً إلى العقل فإنّ العقل ينفي الجهل في حق البارئ تعالى.

البداء عند الإمامية:

إنّ التفسير المعروف والمشهور عند علماء الإمامية لمعنى البداء هو ظهور ما كان مخفياً عن الناس وليس ما كان مخفياً عن الله تعالى

---

(١) مجمع البحرين، مادة: (بدأ) ١ : ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) الكافي ١ : ١٤٨.

لأنّه لا يخفى عليه شيء ومثلوا لذلك في قضية بداء الله في إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام حيث اعتقد بعض الشيعة في ذلك الزمان أنّه هو الإمام المعصوم المفترض الطاعة الذي يأتي بعد أبيه ولم يكونوا قد اعتقدوا بأنّ الإمام الحق هو موسى الكاظم عليه السلام فكان الناس قد اعتقدوا أن الإمام هو إسماعيل لذا فإن الله تعالى أماته في حياة أبيه الصادق عليه السلام فبدا للناس أنّه ليس بإمام وظهر لهم ما كان مخفياً هذا هو المعنى المشهوري للبداء ويظهر من الكلمات أنّ هناك فهماً آخراً للبداء قد يختلف عن هذا وهو أنّ الله تعالى يغير الحكم دون أن يغير العلم الأزلي[1] فقد يحكم لبعض الناس أن يعيش خمسين سنة مثلاً بعد أن كان الحكم الأول هو أن يعيش أربعين سنة فيكون سبب إطالة العمر وإصدار الحكم الثاني هو التصدق أوصلة الرحم أو البر... فإذا تصدق عاش خمسين سنة وإذا لم يتصدق عاش أربعين ومعنى ذلك أن مقدمات تغيير الحكم الأول وتبديله بالثاني كانت بيد العبد فهو الذي تصدّق فالبداء هو (تغيير المصير بالعمل الصالح والطالح)[2] وهذا قد يكون فهماً ثانياً للبداء

---

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة ١ : ٢٦٩.

(٢) البداء في الكتاب والسنة/ السبحاني: ٧٧.

في مقابل الفهم المشهوري ولعل الأمر لا يقف عند هذا الفهم فقد يأتي لنا رأي ثالث يوضح معنى البداء بشكل آخر ولكن بشرط أن لا يستلزم منه محذور عقائدي.

ويمكن أن نقدم تفسيراً يرجع المعنى الأول للبداء - أي تفسيره بأنّه ظهور ما كان مخفياً لدى الناس - إلى المعنى الثاني الذي هو تغيير مصير الإنسان من خلال تغيير الحكم ولنبقى في مسألة البداء في إسماعيل في قول أبي عبد الله عليه السلام: ((ما بدا الله بداء أعظم من بداء بدا له في إسماعيل ابني))[1] فنقول لعل التقدير الأول والحكم الأول كان أن يبقى إسماعيل حياً بعد رحيل أبيه الصادق عليه السلام وأما الحكم الثاني فهو أن يموت إسماعيل قبل موت أبيه الصادق فإذا كان هناك اعتقاد بإمامة إسماعيل وضلالة الناس فيكون هذا شرط لتقديم موته والذي حصل وهذا أمر اختياري أن الناس اعتقدوا باطلاً بإمامة إسماعيل لذا الله تبارك وتعالى قد أماته وأمضى الحكم الثاني ولم يمض الحكم الأول فصار تغييراً في أمر الله تعالى من دون أن يستلزم ذلك الجهل في حقّه فقد كان لإسماعيل

---

(١) الأصول الستة عشر: ٤٩.

أجلان أجل مسمى وأجل غير مسمى فحصل البداء في الأجل المسمى والذي ظهر للناس هو نتيجة ذلك التغيير الإلهي فقد ظهر لهم أنّ إسماعيل ليس بإمام وقد زال الظهور الأول الذي كان لديهم والذي كان منشؤه خطأهم في الاعتقاد ومن هذا البيان يتضح أن تفسير البداء بأنّه ظهور ما كان مخفياً عند الناس هو نتيجة للبداء وليس هو نفس البداء فقد فسروا البداء بنتيجته ولعلهم كانوا ملتفتين إلى ذلك وإن لم يكن هناك تصريح منهم والمهم في المسألة هو نفي المعنى الباطل الذي نسب إلى الشيعة وإبراز المعنى الصحيح الذي يتوافق مع التوحيد ومع الاعتقاد بصفاته تعالى والذي لا يلزم منه محذور عقلي أو نقلي.

وبعد هذا البيان الموجز لمعنى البداء لنعود إلى مسألتنا وأنه هل يجري في المحتوم.

البداء في المحتوم:

بعد أن عرفنا أنّ المقصود بالأمر المحتوم هو الأمر المقضي والحتم هو القضاء الإلهي وأن معنى البداء هو تغيير مصير الإنسان

(٣٨)

بسبب العمل الصالح أو الطالح يقع السؤال المهم وهو هل يقع البداء في الأمر المقضي المحتوم أو لا يقع؟ بعد الفراغ من أنّ البداء يقع في الأمر غير المحتوم وبعد الفراغ أيضاً أنّ البداء لا يقع في الموعود فهناك أمور وعد الله بها في كتابه الكريم مثل ظهور الإمام المهدي عليه السلام واستخلاف المؤمنين وغيرها وهذه لا يقع فيها البداء بلا خلاف.

إذاً فالنزاع وقع في أنّ الأمور المحتومة والمقضية هل يشملها التغيير الإلهي أو لا؟

أقوال العلماء في البداء والمحتوم

علماء بني نوبخت:

اشتهر بنو نوبخت من بين علماء الإمامية في الكلام في القرن الثاني الهجري وما بعده وكان من أبرزهم أبو سهل إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت (ت٣١١هـ)[1] وأوائل القرن الرابع الهجري أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي الذي ينسب إليه كتاب فرق الشيعة وأبو إسحاق إبراهيم النوبختي (٢٥٠ - ٣٥٠هـ)[2] صاحب كتاب الياقوت وهو أول مؤلف في عقائد الإمامية وصل إلينا والملاحظ أنّه لم يُعنّون البداء كموضوع

(١) آل نوبخت/ عباس إقبال: ١٢٣.

(٢) إن من عظماء بني نوبخت أيضاً هو أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي وهو السفير الثالث للإمام المهدي عليه السلام وقد استمرت سفارته قرابة واحد وعشرين عاماً أي من عام ٣٠٥هـ إلى عام ٣٢٦هـ (راجع موسوعة طبقات الفقهاء (المقدمة) ٢ / ١٤٩).

في هذا الكتاب فضلاً عن علاقته بالمحتوم ويظهر من عبارة للشيخ المفيد في أوائل المقالات أنّ علماء بني نوبخت لم يكن لهم رأي معروف خاص في البداء يخالف ما عليه جمهور الإمامية فإنّه بعد أن ذكر معنى البداء قال: (... وهذا مذهب الإمامية بأسرها)[1] فإن قوله (بأسرها) يدلّ على أنّ جميع الإمامية قد اتفقوا على ما ذكره من معنى البداء ومنهم بنو نوبخت نعم هناك آراء عقائدية خاصة لهم في غير موضوع بحثنا[2].

الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ):

نسب البعض إلى الشيخ الصدوق أنّه يذهب إلى عدم جريان البداء في الأمور المحتومة[3] ولكن عند مراجعتنا لكتب الشيخ

---

(١) أوائل المقالات: ٨٠.

(٢) راجع مستدركات أعيان الشيعة ٧ / ١٢ – ١٣ حيث لخص بعض الآراء الكلامية الخاصة التي جاءت في كتاب الياقوت.

(٣) دراسات في علامات الظهور: ١٠٧ ذكر المصنف أنّ الشخص (المعترض) نسب إلى الشيخ الصدوق وإلى غيره عدم جريان البداء في المحتوم وأخذ بالرد عليه ومناقشته.

الصدوق لم نعثر على بحثه لمسألة البداء في المحتوم نعم هو ذكر معنى البداء في أكثر من كتاب[1] وله كلام في تعليقه على رواية بداء إسماعيل وهو قول الإمام الصادق عليه السلام: ((ما بدا لله بداء أعظم من بداء بدا له في إسماعيل ابني))[2] حيث يقول: ما ظهر لله سبحانه أمر في شيء كما ظهر له في ابني إسماعيل ((إذ اخترمه قبلي ليعلم أنّه ليس بإمام بعدي))[3] وربّما يقصد من كلامه أنّ الله تعالى قدم موت إسماعيل على موت أبيه بعدما كان المقدّر أن يموت بعد أبيه وما ذلك التقديم إلا لكي يظهر الله تعالى للناس أنّ إسماعيل ليس بإمام ومن الواضح أنّ الموت هو من الأمور المحتومة[4] ومع أنّه محتوم

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٧٠ قال: وإنما البداء الذي ينسب إلى الإمامية القول به هو ظهور أمره، وفي كتاب التوحيد ٣٣٥: (فمن أقرّ لله عز وجل بأنّ له أن يفعل ما يشاء ويعدم ما يشاء ويخلق مكانه ما يشاء ويقدم ما يشاء ويؤخر ما شاء ويأمر بما شاء كيف شاء فقد أقر بالبداء).

(٢) الأصول الستة عشر: ٤٩.

(٣) الاعتقادات في دين الإمامية: ٤١.

(٤) ورد في دعاء العهد المتعلق بالإمام المهدي عليه السلام والوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: ((اللهم إن حال بيني وبينه الموت الذي جعلته على عبادك حتماً مقضياً فأخرجني من قبري...))، راجع مفاتيح الجنان: ٧٧٦.

(٤٢)

فقد حصل فيه تقديم في الوقت أي حصول البداء في وقت المحتوم دون أصل المحتوم.

الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ):

يميل الشيخ المفيد في تفسيره للبداء إلى: (الإفقار بعد الإغناء والإمراض بعد الإعفاء والإماتة بعد الإحياء وما يذهب إليه أهل العدل خاصة من الزيادة في الآجال والأرزاق والنقصان منها بالأعمال)[1] وتفسيره للبداء مشابه لتفسير النسخ إلّا أنّ الأول في عالم التكوين والثاني في عالم التشريع حيث أنّ الآية المباركة: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[2] هو يمحو ما يتعلق بالأمور التشريعية وهو النسخ ويمحو ما يتعلق بالأمور التكوينية وهو البداء ويرى الشيخ المفيد أنّ العقل لا يستطيع أن يدرك معنى البداء وأنّ قبوله ينحصر بما جاء به الدليل النقلي حيث يقول: (ولو لم يرد به سمع أعلم صحته ما استجزت إطلاقه... ولكنه لما

---

(١) أوائل المقالات: ٨٠.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

جاء السمع به صرت إليه على المعاني التي لا تأباها العقول)[١]

ويفسر الشيخ ما ورد في (بدا لله) أي بدا من الله حيث يفسر معنى حرف اللام بالحرف من ويقول في تصحيح اعتقادات الإمامية: (وتقول العرب: قد بدا لفلان عمل حسن وبدا له كلام فصيح كما يقولون: بدا من فلان كذا فيجعلون اللام قائمة مقامه فالمعنى في قول الإمامية بدا لله في كذا أي: ظهر منه)[٢].

ويعلق على مسألة بداء إسماعيل بقوله: فأما الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام من قوله: ((ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل)) فإنّها على غير ما توهموه أيضاً من البداء في الإمامة وإنما معناها ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: ((إن الله تعالى كتب القتل على ابني إسماعيل مرتين فسألته فيه فعفا عن ذلك فما بدا له في شيء كما بدا له في إسماعيل)) يعني به ما ذكره من القتل الذي كان مكتوباً فصرفه عنه بمسألة أبي عبد الله عليه السلام)[٣].

---

(١) أوائل المقالات: ٨٠.

(٢) تصحيح اعتقادات الإمامية: ٦٥.

(٣) الفصول المختارة من العيون والمحاسن: ٣٠٩ .

ثم ينتهي بالتصريح في معنى البداء ويقول: (هو الظهور فإذا ظهر من أفعاله ما لم يكن في الاحتساب والظنون قيل في ذلك: بدا لله كذا وكذا)[1].

إنّ من يتتبع كلمات الشيخ المفيد في موضوع البداء لا يجد له بحثاً مستقلاً في مسألة البداء في المحتوم ولكن قد يمكن فهم ذلك من بعض تعبيراته في بحث البداء فقوله في مسألة إسماعيل تعليقاً على رواية أبي عبد الله عليه السلام المتقدمة: (يعني به ما ذكره من القتل الذي كان مكتوباً فصرفه)[2] يمكن أن يفهم منه وقوع البداء في الموت أي تأخيره وبعد أن نضم مقدمة وهو أنّ الموت من المحتوم نستطيع القول أنّه يقبل وقوع البداء في المحتوم[3].

والمهم في تفسير البداء عند الشيخ المفيد هو عدم جعله في العلم الإلهي لأنّ ذلك يستلزم الجهل تعالى في الذات الإلهية تعالى

---

(١) المسائل العكبرية:٩٩ - ١٠٠.

(٢) الفصول المختارة: ٣٠٩.

(٣) لا يخفى أنّ الشيخ الصدوق فسر بداء إسماعيل بتقديم موته بينما الشيخ المفيد يفسره بالتأخير.

الله عن ذلك علواً كبيراً ويحاول أن يبقيه على المعنى اللغوي وهو الظهور ولكن بالتوجيه الذي ذكره أي ظهور من الله للناس في أمر لم يكن متوقعاً وحاله حال النسخ الذي تعتقد به المعتزلة[1] ويصور النزاع الذي قد حصل بين المسلمين في البداء بأنّه نزاع لفظي فالشيعة يثبتون شيئاً والسنة ينفون شيئاً آخر وفي الحقيقة هم يقولون بمعنى البداء من الزيادة والنقصان في الآجال وفي الأرزاق وما شاكل ذلك.

البداء الذي أفاده الشيخ هو تغيير في الحكم الإلهي لا العلم الإلهي ومنه يظهر عدم الحاجة إلى ما تكلفه البعض[2] من نسبة التغيير إلى علم الملائكة أو علم الحجج عليهم السلام إذ تشير بعض الروايات إلى أنّ البداء يجري في الأمور التي هي في أم الكتاب:

---

(١) المعتزلة يقولون بالنسخ إلا أنهم ينكرون البداء والحال أنّ الاثنين من واد واحد.

(٢) رسالة التقريب العدد ٦/ الثاني/ ١٩٩٥ مسألة البداء في ضوء إفادات معلم الأمة الشيخ المفيد.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾[١] وأن بعد أن يحصل التغيير في الأمر والحكم يتم إعلام الحجة[٢] أي المعلوم بحدوث البداء أي أنّ الحجة يزداد علماً بذلك وهو مصداق قوله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٣] ولكن يعرض هذا العلم أولاً علىٰ رسول الله ﷺ ثم علىٰ الحجج عليهم السلام[٤].

السيد المرتضى (ت٤٣٦هـ):

يفسر السيد المرتضىٰ البداء بأنّه النسخ حيث قال: (وبقي أن نبين هل لفظة (البداء) إذا حملت علىٰ معنىٰ النسخ حقيقة أو

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢.

(٢) روي عن الإمام الكاظم عليه السلام: ((ان لله تبارك وتعالىٰ علمين: علماً أظهر عليه ملائكته وأنبياءه ورسله فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه وعلماً استأثر به فإذا بدا لله في شيء منه أعلمنا ذلك وعرض علىٰ الأئمة الذين كانوا من قبلنا))، مسائل علي بن جعفر: ٣٢٦.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٤) ((... فإذا بدا لله في شيء من غير المحتوم وتعلق الحتم به أعلم الإمام الموجود بين الخلق وعرض علىٰ الأئمة الماضين عليهم السلام لئلا يكون آخرهم أعلم من أولهم))، شرح أصول الكافي ٦ : ٢٨.

مستعارة؟ ويمكن أن ينص أنها حقيقة في النسخ غير المستعارة)[1] ثم يعرف البداء ويقول: (هو الأمر بالفعل الواحد بعد النهي عنه أو النهي عنه بعد الأمر به مع اتحاد الوقت والوجه والآمر والمأمور)[2] ويقول أيضاً: (والأمر متى دخله النسخ أوجب البداء)[3].

وقد يفهم له معنى ثان للبداء ويميز بينه وبين النسخ بأمرين الأول أن في النسخ يكون فعل المأمور به غير فعل المنهي عنه ولكن في البداء يكون هناك فعل واحد يتعلق به الأمر ويتعلق به النهي والثاني هو أنّه في النسخ يكون هناك تغاير في الوقتين.

وأمّا في البداء فلا يكون تغاير قال في الذريعة: (والنسخ إنما يخالف البداء بتغاير الفعلين فإن فعل المأمور به غير المنهي عنه وإذا تغاير الفعلان فلابدّ من تغاير الوقتين فكان النسخ يخالف البداء بتغاير الفعلين والوقتين)[4].

---

(١) رسائل الشريف المرتضى ١ : ١١٧.

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٢٦٤.

(٣) الذريعة إلى أصول الشريعة ١ : ٤٢٧.

(٤) الذريعة ١ : ٤٢٢.

ويمكن أن نستنتج من كلام له أنّه لا يرتضي وقوع البـداء في الأمور الحتمية ففي مسألة هل يجوز نسخ الشيء قبل وقت العمـل به يصرح السيد المرتضي بأنّه لا يجوز البداء (النسخ) فيه والنسخ كما هو المعروف يحدث في الأمور التشريعية لا التكوينيـة فـإن قلنـا إنّ السيد لا يجوز البداء في الأمور التشريعة قبل وقت العمل ربما يفهم من ذلك عدم جريانه في الأمور التكوينية الحتمية قال (قدس سره) في كتاب الذريعة: فصل في أنّه لا يجوز نسـخ الشـيء قبـل وقـت فعلـه... وذهـب أكثـر المتكلمـين... إلى أنّـه غـير جـائز وهـو الصحيح)[1].

الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ):

يشير الشيخ الطوسي إلى موضوع البداء ضمن بحوثه حـول النسخ باعتبار أنّ البداء يشابه النسخ فالبداء في التكوينات والنسخ في التشريعيات فبعد أن يذكر تعريفاً للنسخ الذي هو (عبـارة عـن كل دليل شرعي دلّ على أنّ مثل الحكم الثابت بالنص الأوّل زائل في المستقبل على وجه لولاه لكان ثابتاً بـالنصّ الأول مـع تراخيـه

---

(١) الذريعة ١ : ٤٣٠ – ٤٣١.

عنه)[١]. يذكر الشيخ الطوسي موضوع البداء ويحدد معناه ضمن شروط أربعة[٢]:

١ـ أن يكون المأمور به هو المنهي عنه.

٢ـ أن يكون الوجه واحداً.

٣ـ أن يكون الوقت واحداً.

٤ـ أن يكون المكلف واحداً.

ومنه يفهم أنّ الوقتين إذا كانا متغايرين فهذا ليس بداء عنده فمثلاً إغناء الإنسان بعد ما كان فقيراً وكذا صحته بعد ما كان مريضاً ليس بداء ثم يصرح بأنّ اختلاف شرائع الأنبياء في الأحكام ليس بداء وفيما يخص علم الأئمة يمكن القول أنّ الأئمة يعلمون جميع جزئيات العلوم ولكنهم لا يعلمون البداء لأنه العلم به يختص بالذات الإلهية المقدسة فهم يعلمون بالأشياء لكن ليس بشكل مطلق وإنما يعلمون بالأمور التي لم يرد تعالى إخفائها عنهم[٣].

---

(١) الاقتصاد: ١٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٤.

(٣) راجع تعليق السيد مهدي اللازوردي والشيخ محمد درودي على كتاب الفوائد الطوسية: ٢٠٧.

(٥٠)

وهناك رواية ينقلها الشيخ الطوسي في كتابه الغيبة يفهم منها أنّ البداء لا يجر في أمرين:

١ـ العلوم التي يخرجها الله تعالى إلى الأنبياء والأئمة عليهم السلام وهم بدورهم ينقلونها إلى الناس فهذا لا يجري فيه البداء لاستلزامه تكذيب الأئمة من قبل الناس والعياذ بالله.

٢ـ أن البداء لا يجري في المحتومات ومنها قيام الإمام المهدي عليه السلام[1] وكما يفهم من رواية أن جميع ما أخبر به الأئمة عليهم السلام للناس هو من المحتوم واليك نص هذه الرواية التي ينقلها الشيخ الطوسي: وحدثني الحسين بن علي بن معمر عن أبيه عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وذكر البداء لله فقال: ((فما

(١) بعض المرويات أطلقت على قيام الإمام المهدي عليه السلام لفظ الميعاد بدلاً من لفظ المحتوم فلاحظ ما رواه النعماني في كتاب الغيبة: ٣١٤ ـ ٣١٥ قال: أخبرنا محمد بن همام قال حدثنا أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري قال: كنا عند أبي جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام فجرى ذكر السفياني وما جاء في الرواية من أنّ أمره من المحتوم فقلت لأبي جعفر: هل يبدو الله في المحتوم؟ قال: «نعم». فقلنا له: فنخاف أن يبدو الله في القائم فقال: «إن القائم من الميعاد والله لا يخلف الميعاد».

أخرج الله إلى الملائكة وأخرجه الملائكة إلى الرسل فأخرجه الرسل إلى الآدميين فليس فيه بداء وأن من المحتوم أن ابني هذا هو القائم))[١].

وقد نفهم من هذه الرواية أنّ المحتوم على نحوين:

النحو الأول: هو ما خرج إلى الناس وهذا لا يجري فيه البداء.

والنحو الثاني: هو ما كان في علم الله تعالى ولم يخرج إلى الناس وهذا ممكن أن يجري فيه البداء وبهذا الوجه يمكن أن نجمع بين ما دل على عدم جريان البداء في المحتوم وهو ما أخرج للناس من الإخبارات بالغيب وبين ما دلّ على أنّ البداء يجري في المحتوم وهذا هو النحو الثاني من المحتوم أي ما كان عند الله تعالى ولم يخرج للناس.

ثم أنّ الشيخ الطوسي يذكر - كتعليق على هذه الرواية - معنى البداء ويصرح بأنّه الظهور كما فسره أهل اللغة فيقول: (فما يتضمن هذا الخبر من ذكر البداء معناه الظهور على ما بيناه في غير

---

(١) الغيبة/ للطوسي: ٥٢ – ٥٣.

موضع)[1] وفي موضع آخر يصرح أنّ البداء هو ظهور ما خفي علينا من أفعاله تعالى يقول: (لأنّ البداء في اللغة هو الظهور فلا يمتنع أن يظهر لنا من أفعال الله تعالى ما كنا نظن خلافه أو نعلم شرطه)[2].

وهناك محاولة للشيخ في تأويل ما ورد في الأخبار من لفظ البداء إلى النسخ أو تغير الشروط وفي موضع آخر بعد نقله بعض أخبار تأخير قيام القائم عليه السلام بقوله من قبيل الرواية التي ذكرها عن الفضل بن شاذان عن محمد بن علي عن سعدان بن مسلم عن أبي بصير قال: قلت له: ألهذا الأمر أمد نريح أبداننا وننتهي إليه؟ قال: ((بلى ولكنكم أذعتم فزاد الله فيه))[3] يقول الشيخ معلقاً: (والوجه في هذه الأخبار ما قدمنا ذكره من تغير المصلحة فيه واقتضائها تأخير الأمر إلى وقت آخر على ما بيناه دون ظهور الأمر له تعالى فإنّا لا نقول به ولا نجوزه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

---

(١) الغيبة/ للطوسي: ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٣٠.

(٣) المصدر نفسه.

ثم يصرح الشيخ بعدم تغير المحتوم وعدم وقوع البداء فيه بقوله: (... إلّا أن يرد الخبر على وجه يعلم أن مخبره لا يتغير فحينئذ نقطع بكونه ولأجل ذلك قرن الحتم بكثير من المخبرات فأعلمنا أنه مما لا يتغير أصلاً فعند ذلك نقطع به)(١).

العلامة الحلي: (ت٧٢٦هـ):

يبدو من العلّامة الحلي أنّه يرى للبداء معنيين فقد فسره بنفس تفسير السيد المرتضى من أنّه: (الأمر بالشيء الواحد في الوقت الواحد على الوجه الواحد والنهي عنه في ذلك الوقت على ذلك الوجه)(٢) وفي مكان ثان أعطى البداء معنى الإظهار بعد الخفاء حيث قال: (وأن النسخ لا يستلزم البداء المستحيل وإنما هو إظهار بعد إخفاء وأنه من قبيل الدفع لا الرفع)(٣) وأما مسألة البداء في المحتوم فحسب تتبعنا لم نرى تعرضاً لها في كتب العلامة.

---

(١) الغيبة: ٤٣٢.

(٢) نهج الحق وكشف الصدق: ٤٠٢.

(٣) نهاية المرام في علم الكلام: ١ / ٢٣.

الحتمية في الفلسفة

إنّ الحتمية (Determinism) كاصطلاح بدأ استخدامه في الفلسفة الغربية، فهي مفردة حديثة أخذت تشقّ طريقها في عالم المعرفة.

إنّ اللفظ الإفرنجي لمصطلح الحتمية ظهر أول مرة في الفلسفة الألمانية وخاصة عند لايبنتس ثم انتقل إلى الفرنسية[1].

وتتلخص فكرة الحتمية في الفلسفة بأنّ هناك أسباب في العلم الطبيعي وفي المجتمع وفي إرادة الإنسان تؤدي هذه الأسباب إلى النتائج نفسها أي أن أنه لا مجال لتغيير مجرى الحوادث وهي بذلك تقترب من فكرة الجبر عند علماء الكلام الأشاعرة.

---

(١) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة: ٢٧٦.

ولغرض إلقاء الضوء على مفهوم الحتمية نستعرض بعض الأقوال فيها ضمن النقاط التالية:

١ـ الحتمية وجهة نظر تقول: إنّ لكلّ حدث شروط إن توفرت يقع الحدث لا محالة وهناك عدة مجالات لهذه النظرية ففي مجال الأخلاق نفترض الحتمية أن الإنسان منظور على الخير وأنّه لا يمكن إلّا أن يفعل ما يبدو له أنّه الخير فإذا فعل الشر فعله مضطراً وفي مجال الدين تقول بأنّ عالمنا أحسن العوالم الممكنة لطالما أنّ الله تعالى عالم وقادر وهناك الحتمية العلمية التي شملت علم الفيزياء وعلم النفس والتأريخ ترد كل ما يحدث في الطبيعة إلى قوانين ثابتة لا تتغير[1].

٢ـ الحتمية هي أن يكون حدوث ظاهرة ما محدداً بالضرورة من قبل أسباب محددة فإذا تحققت الأسباب حدثت الظاهرة وإذا كان بإمكاننا معرفة الأسباب فسوف نتنبأ بما يحصل في المستقبل[2].

٣ـ الحتمية تعني أنّ الحوادث والسلوكيات متعينة من قبل

---

(١) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة: ٢٧٦.

(٢) معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية: ١٣٣.

قوانين العالم أو بواسطة الله تعالى وأنّه لا تتخلف عن ذلك قط وهناك الحتمية العلمية أو العلية (scientific/causal) التي تعني أن كل حدث في العالم منبثق عن حدث آخر أو أمور طبقاً لقوانين العلية.

وقد طرحت هذه الفكرة من قبل العالم (لابلاس) بالاستيحاء من نجاحات (نيوتن) في مجال الفيزياء والحتمية العلمية تنكر وقوع الصدفة لأنّ المهم عندهم هيمنة قوانين العلية العامة وأمّا الحتمية الدينية أو الكلامية (Theological determinism) ترى أنّ كل ما يقع في العالم إنّما يقع بمشيئة الله وقدرته ويميز البعض بين هذه الحتمية وبين الجبرية (Fatalism) التي يعتقد أصحابها أنّ بعض القوى كالأجرام السماوية تتلاعب بمصير الإنسان وأما الحتمية التاريخية (Historical determinism) فتقول إن لم يكن بمقدور أي شيء في ماضي الإنسان أن يقع إلّا كما وقع وهذه الرؤية تعتمد على أنّ الحركة التاريخية حركة لا يمكن تجنبها وأمر حتمي لابد منه ومن الملاحظ أن الاعتراف بقانون العلية العامة لا يوجب الحتمية لأنّ الإنسان كموجود له فكر واختيار وله القدرة على صناعة الحوادث التاريخية

بفكره وعمله وهو اللاعب الأصلي في حركة التاريخ"[1].

٤ـ أن قانون الحتمية يعني أنّ كلّ سبب يولد النتيجة الطبيعية له بصورة ضرورية ولا يمكن للنتائج أن تنفصل عن أسبابها وأما مبدأ العلية فيقول أن لكل حادثة سبباً وأما قانون التناسب بين الأسباب والنتائج فيقول أنّ كلّ مجموعة متفقة في حقيقتها من مجاميع الطبيعة يلزم أن تتفق أيضاً في الأسباب والنتائج"[2].

٥ـ إنّ الحتمية هو مبدأ في العلم يقول: إنّ الأسباب نفسها تؤدي إلى النتائج نفسها وهي فكرة وجود نظام ثابت لا يتغير في العلاقات بين الظاهرات"[3].

٦ـ الحتمية هي النظرية التي تقول: إنّ كل شيء في الكون محكوم تماماً بالقوانين السببية وأنّ ما يحدث في لحظة ما ليس إلا نتيجة لشيء حدث في لحظة سابقة"[4].

---

(١) بشارة الأمان بموعود الأديان: ٣٢١ – ٣٢٤.

(٢) فلسفتنا: ٢٦٣.

(٣) قاموس الفلسفة: ١٧٩.

(٤) مجلة المعرفة العدد: ١٣٥ صفحة: ٨٣ / دفاعاً عن الحتمية.

٧ـ الحتمية اتجاه فلسفي يرىٰ أنّ أفعال الإنسان وتصرفاته والحوادث الطبيعية وكذا الظروف الاجتماعية والظواهر النفسية محكومة بأسباب ضرورية خارجة عن إرادة الإنسان وسابقة عليها والحتمية تعني الضرورة المشروطة (Hypothetical) بمعنىٰ إذا توافرت مجموعة معينة من الشروط المعلومة بالنسبة لظاهرة طبيعية فلابدّ أن تقع[1].

٨ـ إنّ فلاسفة العلم انتهت تحليلاتهم للحتمية إلىٰ هذه المواقف المتميزة:

أـ إنّ التجريبيون أمثال (جون أستيوارت مل) ردوا مبدأ الحتمية إلىٰ مبدأ السببية.

ب ـ العقلانيون والمثاليون أمثال (ديكارت) و(كانت) ذهبوا إلىٰ أن الحتمية أما أن تكون منظورة في العقل الإنساني (Innate) أي يولد الإنسان وهو مفرود بها أم تكون مبدأ أولياً سابقاً علىٰ التجربة (Apriari).

جـ ـ الواقعيون من أصحاب الاتجاهات الميتافيزيقية أمثال

---

(١) فلسفة العلوم الطبيعية: ٣١٦.

(وايتهد) و(برود) و(بافينك) فقد أكدوا واقعية وموضوعية مبدأ الحتمية.

د ـ (ماكس بلانك) صاحب نظرية الكوانتم، حاول إنقاذ مبدأ الحتمية من الانهيار الذي تسبب فيه (هيزنبرج) بمبدئه عن اللاتَعَيُّن واللاحتمية.

هـ ـ فلاسفة العلم من المناطقة رفضوا التفسيرات السابقة واعتبروا مبدأ الحتمية مصادر برجماتية أو أداتية أو فرضاً شديد العمومية نسلم به من أجل قيام العلم دون أن نبرهن عليه وطالما كان البرهان مستحيلاً. وعليه ظل مبدأ الحتمية مقبولاً إلى القرن التاسع عشر ثم حل محلّه مبدأ هيزنبرج في اللاتَعَيُّن (uncertaintity principle)[1].

ومما تقدم من هذا العرض نعرف أنّ الحتمية مفهوم فلسفي حاول إعطاء تفسير للظواهر العلمية والاجتماعية ومن ثم إرادة

---

(١) فلسفة العلوم الطبيعية: ٣٢٠ – ٣٢١.

(٦١)

الإنسان وسلوكه ونفهم أيضاً أنّه حصل اختلاف في قبوله فمنهم من رفضه.

ومن الجدير الإشارة هنا إلى أنّ مفهوم الحتمية عند الفلاسفة يقترب كثيراً من فكرة الجبر المفسرة لإرادة الإنسان - إن لم تكن نفسها - وبالتالي فهو لا ينسجم مع عقيدة ((لا جبر ولا تفويض وإنما أمر بين الأمرين)).

المصادر

القرآن الكريم

١ـ إبراهيم مصطفى/المعجم الوسيط/انتشارات صادق/طهران/ باقري/ط ١٤٢٦/٤هـ

٢ـ ابن أبي زينب/الغيبة/تحقيق: فارس حسون كريم/أنوار الهدى/قم/ مهر/ ط ١/ ١٤٢٢هـ

٣ـ ابن كثير/تفسير القرآن العظيم/تقديم: يوسف عبد الرحمن المرعشي/دار المعرفة/ ١٤١٢هـ

٤ـ أبو الفتوح الرازي/ روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن (فارسي)/ تحقيق د. محمد جعفر يا حقي، د. محمد مهدي ناصح/ انتشارات أستان قدس رضوي/ مشهد/ ١٣٦٨ش.

٥ـ أبو هلال العسكري/ الفروق اللغوية/ مؤسسة النشر الإسلامي/ ط ١/ ١٤١٢هـ

٦ـ بدوي عبد الفتاح محمد/ فلسفة العلوم الطبقية/ عمان/ ط ١/

١٤٣٢هـ

٧ـ بلال جيوشي / مجلة المعرفة / العدد ١٣٥ / دفاعا عن الحتمية / سوريا / ١٩٧٣.

٨ـ جعفر السبحاني / موسوعة طبقات الفقهاء (المقدمة) / مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام / قم / ط ١ / ١٤١٨هـ

٩ـ جعفر السبحاني / البداء في الكتاب والسنة / مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام / قم / اعتماد / ط ١ / ١٤٢٤هـ

١٠. جلال الدين سعيد / معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية / دار الجنوب / تونس / ٢٠٠٧م.

١١ـ الجوهري / الصحاح / تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٤٠٧هـ

١٢. حسن الأمين / مستدركات أعيان الشيعة / دار التعارف / ١٤٠٩هـ

١٣. الحسن بن يوسف المطهر الحلي / نهاية المرام في علم الكلام / إشراف: الشيخ جعفر السبحاني / تحقيق: فاضل العرفان / مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام / قم / اعتماد / ط ١ / ١٤١٩هـ

١٤. الحسن بن يوسف المطهر الحلي / نهج الحق وكشف الصدق /

تقـديم: السـيد رضـا الصـدر تعليـق: الشـيخ عـين الله الحسـني الأرمـوي/ مؤسسـة الطباعـة والنشـر دار الهجـرة / قـم/ سـتارة/ ١٤٢١هـ

١٥ـ الخليـل الفراهيـدي/ العـين/ تحقيـق: د. مهـدي المخزومـي، د. إبراهيم السامرئي/ مؤسسة دار الهجرة/ ط٢/ ١٤٠٩هـ

١٦ـ ديديـه جوليـا / قـاموس الفلسـفة/ تعريـب: د. فرنسـوا ايـوب/ بيروت/ انطوان/ ١٩٩٢.

١٧ـ الراغـب الاصفهاني/ مفـردات الفـاظ القـرآن/ تحقيـق: صـفوان عدنان داودي/ طليعة النور/ قم/ سليمان زاده/ ط٢/ ١٤٢٧هـ

١٨. الزبيدي/ تاج العروس/ تحقيق: علي شيري/ دار الفكر/ بيروت/ ١٤١٤هـ

١٩ـ سـعيد اختـر الرضـوي/ مسـألة البـداء فـي ضـوء افـادات الشـيخ المفيد/ رسالة التقريب / المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية / طهران / العدد ٦ / ١٤١٥هـ

٢٠. الشوكاني/ فتح القدير/ عالم الكتب.

٢١. الطباطبائي/ تفسير الميزان/ مؤسسة النشر الإسلامي.

٢٢ـ عبـاس إقبـال الأشـتياني/ آل نوبخـت/ تعريـب علـي هاشـم الأسـدي/ مؤسسـة الطبـع والنشـر التابعـة للآسـتانة الرضـوية

المقدسة/ مشهد/ ط١/ ١٤٢٥هـ

٢٣ـ عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ تعريب: محمد رضا النوري النجفي/ مكتبة العزيزي/ قم/ البعثة/ ط٣/ ١٣٨٥ش.

٢٤ـ عبد المنعم الحنفي/ المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة/ القاهرة/ مدبولي/ ط٣/ ١٤٢٠هـ

٢٥. عدة محدثين / الأصول الستة عشر/ دار الشبستري/ قم/ مهدية/ ط٢/ ١٤٠٥هـ

٢٦ـ علي بن إبراهيم القمي/ تفسير القمي/ تصحيح السيد طيب الموسوي الجزائري/ مؤسسة دار الكتاب/ قم/ ط٣/ ١٤٠٤هـ

٢٧ـ علي بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام/ مسائل علي بن جعفر/ تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث/ قم/ ط١/ ١٤٠٩هـ

٢٨ـ علي بن الحسين الشريف المرتضى/ الذريعة إلى أصول الشريعة/ تصحيح: أبو القاسم كرجي/ طهران/ ١٣٤٦ش.

٢٩ـ علي بن الحسين الشريف المرتضى/ رسائل الشريف المرتضى/ تقديم: أحمد الحسيني/إعداد: السيد مهدي

الرجائي/ دار القرآن الكريم/ مطبعة سيد الشهداء/ قم/ ١٤٠٥هـ

٣٠. فخر الدين الرازي/ تفسير الرازي/ ط٣.

٣١ـ فخر الدين الطريحي/ مجمع البحرين/ مرتضوي/ مطبعة طراوت/ طهران/ ط٢/ ١٣٦٢ش.

٣٢. الفيروز أبادي/ القاموس المحيط.

٣٣ـ الفيض الكاشاني/ الوافي/ تحقيق: مركز التحقيقات الدينية والعلمية في مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام / أصفهان/ ط١/ ١٤١٥هـ

٣٤. لويس معلوف/ المنجد في اللغة/ دار المشرق/ بيروت/ المكتبة الشرقية/ ط٣٣/ ١٩٩٤م.

٣٥. مجد الدين بن أثير/ النهاية في غريب الحديث والأثر/ تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي/ مؤسسة إسماعيليان/ قم/ ط٤/ ١٣٦٤ش.

٣٦ـ محمد امامي كاشاني/ بشارة الامان بموعود الأديان/ مجمع أهل البيت عليهم السلام / النجف الأشرف/ ١٤٣٤هـ

٣٧. محمد باقر الصدر/ فلسفتنا/ دار الكتاب الإسلامي/ الأمير/ ط٣/

١٤٢٥هـ

٣٨ـ محمد صالح المازندراني / شرح أصول الكافي / تحقيق أبو الحسن الشعراني / تصحيح السيد علي عاشور / دار إحياء التراث العربي / بيروت / ط ١ / ١٤٢١هـ

٣٩. محمد بن الحسن الحر العاملي / الفوائد الطوسية / تعليق: السيد مهدي اللازوردي والشيخ محمد درودي / المطبعة العلمية / قم / ١٤٠٣هـ

٤٠ـ محمد بن الحسن الحر العاملي / الفصول المهمة في أصول الأئمة / تحقيق: محمد بن محمد الحسين القائيني / مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا عليه السلام / قم / ط ١ / ١٤١٨هـ

٤١. محمد بن الحسن الطوسي / الاقتصاد / منشورات مكتبة جامع جهلستون / قم / الخيام / ١٤٠٠هـ

٤٢. محمد بن الحسن الطوسي / الغيبة / مؤسسة المعارف الإسلامية / تحقيق الشيخ عباد الله الطهراني، الشيخ علي أحمد ناصح / قم / بهمن / ط ١ / ١٤١١هـ

٤٣ـ محمد بن علي بن الحسين الصدوق / الاعتقادات في دين الإمامية / تحقيق عصام عبد السيد / دار المفيد للطباعة والنشر /

بيروت/ ط٢/ ١٤١٤هـ

٤٤. محمد بن علي بن الحسين الصدوق / التوحيد/تصحيح السيد هاشم الحسيني الطهراني/ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين/قم المشرفة.

٤٥ـ محمد بن علي بن الحسين الصدوق / كمال الدين وتمام النعمة/ تصحيح علي أكبر الغفاري/ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين/قم المشرفة/ ١٤٠٥هـ

٤٦. محمد بن محمد بن النعمان المفيد/ أوائل المقالات/ تحقيق: إبراهيم الأنصاري/ دار المفيد/ لبنان/ ط٢/ ١٤١٤هـ

٤٧ـ محمد بن محمد بن النعمان المفيد / تصحيح اعتقادات الإمامية/ تحقيق: حسين دركاهي/ دار المفيد/ ط٢/ ١٤١٤هـ

٤٨ محمد بن محمد النعمان المفيد / الفصول المختارة/ تحقيق/السيد نور الدين جعفريان الأصبهاني، الشيخ يعقوب الجعفري، الشيخ محسن الأحمدي/ دار المفيد/ ط٢/ ١٤١٤هـ

٤٩. محمد بن محمد بن النعمان المفيد / المسائل العكبرية/ تحقيق: علي أكبر الإلهي الخراساني/ دار المفيد/ ط٢/ ١٤١٤هـ

٥٠ـ محمد بن محمد رضا القمي المشهدي/ تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب/ تحقيق: حسين دركاهي/ مؤسسة الطبع والنشر

وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي/ طهران/ط١/ ١٤١١هـ

٥١ـ محمد بن يعقوب الكليني/ الكافي/ تصحيح علي أكبر الغفاري/ دار الكتب الإسلامية/ طهران/ حيدري/ ط٣/ ١٣٦٧ش.

٥٢ـ مقاتل بن سليمان / تفسير مقاتل بن سليمان/ تحقيق: أحمد فريد/ دار الكتب العلمية/ لبنان/ ط١/ ١٤٢٤هـ

٥٣ـ ناصر مكارم الشيرازي/الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٥٤ـ يوسف شكري فرحات/ معجم الطلاب/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط٩/ ٢٠١١م.

الفهرس